

٣ – ثلاث معارك فى البر والجو

بينما كانت العمليات العسكرية دائرة فى جبهتى القناة والجولان لصالحنا يوم ٦ أكتوبر وليلة ٦/٧ كانت هناك اتصالات سياسية تتم بين مصر وسوريا والاتحاد السوفيتى عن أمور تتعلق بالحرب .

لقد سجل الرئيس الراحل السادات[١] ، أنه فى يوم الأربعاء ٣ أكتوبر ١٩٧٣ وحسب اتفاق مسبق مع الرئيس حافظ الأسد فى أواخر أغسطس ١٩٧٣ ، استدعى السفير السوفيتى بالقاهرة وأبلغه رسمياً أن مصر وسوريا قررتا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل ... ولم يحدد السادات موعد بدء الحرب للسفير السوفيتى ، لأنه سبق أن اتفق مع الرئيس الأسد أنه – الأسد – هو الذى يستدعى السفير السوفيتى فى دمشق يوم ٤ أكتوبر لإبلاغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر .

إلتقى الرئيس السادات مع السفير السوفيتى – بناء على طلب السفير – فى قصر الطاهرة فى الساعة الثامنة إلا ثلثاً يوم ٦ أكتوبر ، أى بعد حوالى ست ساعات من بدء الحرب ... جاء السفير ليقول له :

« إن الرئيس حافظ الأسد استدعى السفير السوفيتى يوم ٤ أكتوبر ، وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر ... وأن حافظ الأسد طلب فى هذه المقابلة من الاتحاد السوفيتى العمل على وقف إطلاق النار بعد ٤٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات

(١) الرئيس السادات : البحث عن الذات . طبعة عربية . ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

يوم ٦ أكتوبر ... وبناء على ذلك جاء يبلغنى بذلك رسميا من القادة السوفيت ، ويطلب منى الموافقة على ذلك » .

قال السادات :

أنا أشك فى أن الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة .

رد السفير :

أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من القادة السوفيت ، وإذا كان لديك أى شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للتفاهم معه .

قال السادات :

سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل فى هذا الموضوع . ولكن أرجو تبليغ القادة السوفيت أنه حتى إذا كان هذا هو طلب سوريا فعلاً ، فإنى لن أوقف إطلاق النيران إلا بعد الانتهاء من الأهداف السياسية المحددة لمعركتي .

وعلى أثر هذه المقابلة ، أرسل الرئيس السادات برقية شفرية إلى الرئيس الأسد أبلغه فيها بنص تبليغ السفير السوفيتى بالقاهرة ورده عليه . وجاء رد الرئيس الأسد عصر يوم ٧ أكتوبر أى بعد أربع وعشرين ساعة – برغم خطورة الموضوع – بأن هذا الذى يدعيه الاتحاد السوفيتى لم يحدث . وفوجىء الرئيس السادات بالسفير السوفيتى يطلب مقابلة عاجلة فى مساء يوم ٧ أكتوبر . فى هذه المقابلة أخطره الرئيس السادات بالرد الذى وصله من سوريا . قال السفير إنه طلب المقابلة لتبليغ رسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء على طلب سوريا للمرة الثانية وقف إطلاق النار .

قال السادات :

أرجو أن تقفل الموضوع وتعتبره إنتهى عند هذا الحد . فانتم تعلمون منذ الأمس ، إننى لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة » .

والرأى عندى ، انه لم يكن هناك ما يدعو مصر إلى قبول وقف اطلاق النيران فى هذا الوقت المبكر جداً من الحرب ، لأن الموقف العسكرى المصرى – والسورى أيضاً – كان قوياً وناجحاً . ولقد كان قبول الرأى بإيقاف القتال هو فى صالح إسرائيل حينئذ ، ولذلك فإن القرار السياسى باستمرار العمليات العسكرية فى ذلك الوقت حتى يتحقق الهدف الاستراتيجى كان قراراً سليماً .

وفى نفس الوقت ، فإن هذا الحدث - خلال اليومين الأول والثانى للقتال - يعطى الانطباع بأن هناك غموضاً وشكوكاً كانا يسودان العلاقات السياسية بين سوريا ومصر والاتحاد السوفيتى منذ بداية الحرب .

الاستراتيجية الأمريكية لمواجهة الأزمة :

عندما نشبت الحرب ، كان رد فعل نشوبها سريعاً فى الولايات المتحدة . وكان من الطبيعى أن تقف بثبات وصلابة بجانب إسرائيل التى يجب أن تشعر دائما بالتأييد الأمريكى لها سياسياً وعسكرياً ، حتى تتمكن الولايات المتحدة من تنفيذ سياستها فى الشرق الأوسط ، وفى نفس الوقت تحقق إسرائيل أهدافها .

ولمواجهة الأزمة شكلت الولايات المتحدة « مجموعة العمل الخاص » برئاسة الدكتور كسنجر مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى ووزير الخارجية فى نفس الوقت . وفى اجتماع لها فى الساعة السابعة مساء يوم ٦ أكتوبر ، أبلغ كسنجر « مجموعة العمل » أنه اتصل بالرئيس نكسون - خارج واشنطن - والسفير السوفيتى ووزير خارجية إسرائيل . وان الرئيس نكسون أمر بتحرك الأسطول السادس الأمريكى إلى شرق البحر المتوسط ، بحيث يتواجد بالقرب من جزيرة كريت . ولما كانت إحدى حاملات الطائرات تتمركز فى اليونان والأخرى فى اسبانيا ، وبحارتها والطيارون كانوا فى أجازة ، لذلك فإنها تحتاج إلى يومين للوصول إلى ساحل الجزيرة . ومراعاة لرد فعل الاتحاد السوفيتى ، روعى أن تكون التحركات العسكرية الأمريكية بحذر وحكمة حتى لا يسىء الاتحاد السوفيتى تفسيرها . وأصبح الاسطولان السوفيتى والأمريكى يقومان بالمرور حول جزيرة كريت .

وفى شرحه للاستراتيجية الأمريكية لمواجهة الأزمة ، يقول كسنجر[1] :

« اندلعت الحرب ، ويجب علينا مواجهة عدد من المسئوليات تبدو وكأنها متناقضة . علينا تأمين بقاء إسرائيل والمحافظة على أمنها ، وعلينا فى الوقت نفسه المحافظة على علاقاتنا مع الدول العربية المعتدلة كالأردن مثلاً والمملكة العربية

---

(١) مذكرات كسنجر فى البيت الأبيض - ترجمة خليل فريجات - الجزء الرابع - ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

السعودية . إننا نعلم مسبقاً أن أوربا واليابان ستصبحان فى قلق إذا طال أمد الأزمة ، وأنهما سوف تتبعان طريقاً يختلف عما نسلك فى حالة فشلنا .

أما بالنسبة للسوفيت ، فهم يتصرفون بحكمة ومهارة ، وعلينا ألا نتوقع منهم مد يد العون لنا لانقاذنا من ورطتنا . وربما كان العكس فهم سوف يلجئون إلى تصعيدها .

ولقد كنت على اقتناع منذ البداية ، بأننا ما زلنا فى موقف يمكّننا من السيطرة على الأحداث . وحليفتنا إسرائيل لا بد لها أن تنتصر . وأصدقاؤنا العرب المعتدلون ، على الرغم من عدم تقبلهم فكرة حدوث حرب ، فهم راغبون فى انتصار إخوانهم العرب . ورغبة أوربا بالتخلى عنا يمكن تهدئتها ، إذا اتضح لها أننا نتمتع بموقف السيادة على الوضع . ونستطيع فى الوقت نفسه ، حمل السوفيت على التحلى بالتعقل بإلحاحنا عليهم لايقاف المغامرة . كما أننا سوف نستخدم جميع وسائلنا لمواجهة الواقع فى حالة فشل الدبلوماسية ...

الآن وقد بدأت الحرب ، يجب إخراج دبلوماسيتنا من المأزق الذى وصلت إليه ، وليس هذا سهلاً . فإذا أحرزت إسرائيل نصراً ساحقاً ، عندئذ يجب علينا تحاشى أن تكون نقطة التقاء لجميع أحقاد العرب . وعلينا أيضاً منع الاتحاد السوفيتى من الظهور بمظهر منقذ العالم العربى .

وإذا حدث ما لا نتوقعه ، وإذا أحدق الخطر بإسرائيل ، يجب علينا بذل الجهود فى سبيل إنقاذها . إننا لا نستطيع السماح لاتباع الاتحاد السوفيتى بتدمير صديقنا التقليدى .. » .

□ □ □

لقد قدرت الولايات المتحدة – عند نشوب الحرب – أن القتال سيتطور بسرعة لصالح إسرائيل ، بعد أن تقوم بهجوم مضاد تعيد فيه مصر وسوريا إلى الخطوط التى كانت عليها قواتهما صباح السادس من أكتوبر ، وأكّد الخبراء الأمريكيون أن ذلك يستغرق ٧٢ ساعة فقط . وحينئذ تعمل الولايات المتحدة ، بالتنسيق مع الاتحاد السوفيتى ، للحصول على قرار من مجلس الأمن بإيقاف إطلاق النار على تلك الخطوط . وتوقعت الولايات المتحدة أن هذا القرار يكون فى صالح إسرائيل التى تحتفظ بخطوطها

صباح يوم ٦ أكتوبر دون تغيير ، كما أن هذا القرار يقبله العرب طالما أنهم لم يحققوا النجاح فى القتال .

وعلى ذلك وضعت الولايات المتحدة سياستها لمواجهة الأزمة على أساس أن يكون موقفها قوياً يضمن لها التحرك السياسى القوى فى مواجهة الاتحاد السوفيتى ، ويضمن لها تقديم الدعم العسكرى والسياسى لإسرائيل ، وفى نفس الوقت يضمن عدم حدوث مواجهة مع العرب .

وتنفيذاً لهذه السياسة ، فإن الإدارة الأمريكية لم تعمل فى أى وقت خلال الحرب على إدانة العرب أو وصفهم بالمعتدين ، لأنهم بدءوا الحرب ضد إسرائيل التى تحتل أراضيهم . وهذا الموقف يخالف الموقف الذى اتخذته الولايات المتحدة فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، عندما حمَّل الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت – جونسون – مسئولية تلك الحرب للرئيس عبد الناصر ، برغم أنه كان يعلم ان إسرائيل هى التى بدأت الحرب وعبرت الحدود العربية لاحتلال مزيد من الأراضى العربية المجاورة .

□ □ □

وفى إطار سياسة التعاون بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، كشف الجنرال اليعازار رئيس الأركان الإسرائيلى – فى مذكراته التى نشرت بعد الحرب – بعض أسرار المعاونة العسكرية لإسرائيل منذ اليوم الأول للقتال .

قال اليعازار : « إن الاتصال كان مفتوحا دائماً بين القيادة الإسرائيلية ووزارة الدفاع الأمريكية للتشاور فى الموقف العسكرى أولاً بأول . طلبت إسرائيل يوم ٦ أكتوبر من أمريكا إبداء الرأى العاجل فيما حدث وتزويدهم بالخطط التى يراها البنتاجون صحيحة ومناسبة لمواجهة هذا الموقف . وكان رد أمريكا أن تنتظر إسرائيل قليلاً حتى يتم الخبراء العسكريون الأمريكيون تقييم الموقف بعد عبور المصريين قناة السويس وانتهاء فعالية خط بارليف .

وكانت نصيحة أمريكا أن تحاول إسرائيل بكل جهد تحطيم رءوس الكبارى المصرية خلال الساعات الأولى من نهار السابع من أكتوبر ، وأن تقوم بتوجيه ضربة قوية لشبكة الصواريخ سام ٦ ، وأن تتجنب القتال المباشر » .

والحقيقة أن هذا بالضبط ما نفذته إسرائيل يوم ٧ أكتوبر – اليوم الثانى للعمليات – بعد أن استمعت إلى « النصيحة الأمريكية » وكلمة النصيحة هنا مستعارة استخدمها اليعازار حتى يتفادى كلمة « خطة أمريكية » . .

وفى الواقع فإنها خطة عسكرية أمريكية تشمل أمرين لتحقيق هدفين عسكريين هما :

الأول : هجوم مضاد إسرائيلى لتحطيم رءوس الكبارى المصرية .

الثانى : توجيه ضربة جوية إسرائيلية ضد شبكة الدفاع الجوى المصرى لشل فعاليتها .

ومن الملاحظ أن الخطة العسكرية الأمريكية المقترحة لإسرائيل ، تتمشى تماما مع التخطيط السياسى الأمريكى الذى بنى فى هذه المرحلة من الحرب على أساس أن القتال سيتطور بسرعة لصالح إسرائيل التى تُعيد الموقف إلى ما كان عليه فى وقت قصير . وبتعبير كسنجر « إستراتيجيتنا الخاصة : انتظار إسرائيل لاستعادة وضعها العسكرى » .

□ □ □

وفى الصباح المبكر من يوم الأحد ٧ أكتوبر ، بدأت المعارك فى البر والجو كما توقعناها فى القيادة العامة للقوات المسلحة طبقا لما هو موضح فى خطة الحرب .

فى هذا الصباح خاضت قواتنا سلسلة من المعارك . فقد قامت قوات الجيشين الثانى والثالث بصد هجمات العدو المضادة ، وبدأت معركة « القنطرة شرق » لتحرير المدينة ، ودارت المعارك الجوية على أشدها ، وكانت قوات الصاعقة تشعل النيران فى آبار ومنشآت البترول على الشاطئ الشرقى لخليج السويس .

الهجوم المضاد الإسرائيلى :

بدأت القوات الإسرائيلية هجومها المضاد لتدمير قواتنا التى عبرت . واستخدمت فى هذا الهجوم ثلاثة لواءات مدرعة بها حوالى ٣٥٠ دبابة ، بالاضافة لقوات الخطوط الأمامية بالجبهة والموجود بها حوالى مائة دبابة مشتركة فى القتال منذ اليوم السابق .

اندفعت الدبابات الإسرائيلية فى مجموعة كتائب فى اتجاهات مختلفة لاختراق مواقع قواتنا . وتصورت القوات المدرعة الإسرائيلية بقيادة الجنرال مندلر ، أنها

ستكتسح بنيران دباباتها وعرباتها المدرعة قوات المشاة المصرية بالجبهة . وكانت المفاجأة شديدة للعدو عندما وجدت قوات الفرق المشاة تواجهها بنيران الأسلحة المضادة للدبابات وبصفة خاصة الصواريخ المضادة للدبابات . وكلما استمر الهجوم ازدادت الخسائر .

حاولت كتيبة دبابات إسرائيلية الهجوم فى اتجاه القنطرة شرق ، وفشلت .
وحاولت كتيبة دبابات أخرى الهجوم فى اتجاه الفردان ، ولم تنجح .
ووجهت كتيبة جهدها فى اتجاه الاسماعيلية ، وفشلت .
وقامت مجموعة كتيبة دبابات بهجوم فى اتجاه الشط ، ولم تحقق شيئاً .

وبعد حوالى خمس ساعات من القتال أصبح واضحاً لقوات الجيشين ، وكذا للقوات الإسرائيلية ، أن الهجوم المضاد الإسرائيلى قد فشل ، بعد أن خسرت الفرقة المدرعة بقيادة مندلر حوالى ١٧٥ دبابة خلال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر[1] .

وكان على قوات الجيشين استكمال تصفية حصون خط بارليف ، والتعمق بتقدمها شرقاً خصوصاً فى قطاع « القنطرة شرق » للاستيلاء على المدينة وتحريرها .

معارك الطيران والدفاع الجوى :

وبينما كانت معركة صد الهجوم المضاد دائرة ، وتنفيذاً للخطة الأمريكية لإسرائيل بتوجيه ضربة قوية ضد شبكة الدفاع الجوى ، اقتربت فى الصباح المبكر من هذا اليوم - ٧ أكتوبر - أعداد كبيرة من الطائرات الإسرائيلية ، وصل عددها إلى ١٦٠ طائرة تطير على ارتفاعات منخفضة فوق البحر المتوسط فى اتجاه المطارات المصرية فى شمال ووسط الدلتا ، وفوق البحر الأحمر فى اتجاه مطاراتنا فى الصحراء الشرقية .

كانت إسرائيل ما زالت تعيش فى وهم أن سلاحها الجوى قادر على توجيه ضربة قوية ضد مطاراتنا ووسائل الدفاع الجوى ، وظنت أنها يمكنها التغلب على شبكة الرادار المصرية وتحقق المفاجأة أثناء هجومها .

---

(١) ت . ديبوى - الانتصار المحيّر - طبعة إنجليزية - ص ٤٢٠ ، قدر خسائر إسرائيل فى نهاية يوم ٧ أكتوبر بأكثر من ذلك . وحدد عدد دبابات مندلر بأنها أصبحت أكثر من ١٠٠ دبابة بقليل بعد أن كان عددها ٣٠٠ دبابة .

أيقن الطيارون الإسرائيليون ، بمجرد اقترابهم من الأهداف المحددة لهم ، أن قواتنا الجوية وقوات الدفاع الجوى قد تغيرت جذرياً عما كانت عليه فى الحروب السابقة . وجد الطيارون الإسرائيليون المقاتلات الاعتراضية المصرية فى انتظارهم ، وتدخل المعارك الجوية ضدهم . ومن نجح منهم فى تجنب المقاتلات المصرية وتسلل على ارتفاع منخفض فى اتجاه هدفه ، وجد نفسه فى نيران المدفعية المضادة للطائرات والصواريخ المحمولة على الكتف . ومن حاول الارتفاع هرباً من المصير المحتوم تلقفته الصواريخ سام بضرباتها . ألقى الطيارون الإسرائيليون حمولاتهم أينما كانوا وعادوا هاربين إذا كتب لهم النجاة من المعارك الجوية .

بعد أن فشل السلاح الجوى الإسرائيلى فى محاولته لضرب المطارات المصرية فى بداية اليوم - ٧ أكتوبر - تحول بمجهوده الرئيسى لتدمير الكبارى والمعابر حتى تنقطع الشرايين التى تضمن لقواتنا فى سيناء الاستمرار والقدرة على مواصلة القتال . وتكررت المعارك الجوية ، ووقفت وسائل الدفاع الجوى عن الكبارى تحميها وتساهم بأكبر قدر من الخسائر فى السلاح الجوى الإسرائيلى .

لقد شهد هذا اليوم معارك جوية عنيفة اشتركت فيها أعداد كبيرة من الطائرات المصرية والإسرائيلية واستمرت وقتا طويلاً لا يتوقعه الكثيرون فى المعارك الجوية . ولم يقتصر عمل قواتنا الجوية على حماية القوات البرية ، بل استمرت أيضاً فى توجيه هجماتها الجوية ضد مواقع العدو فى القطاعين الأوسط والشمالى فى سيناء لتدمير بطاريات مدفعية العدو ووسائل دفاعه الجوى ومناطقه الإدارية . وفى نهاية قتال هذا اليوم كانت قواتنا الجوية وقوات الدفاع الجوى قد اسقطت للعدو ٥٧ طائرة خلال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر منها ٢٧ طائرة فى اليوم الأول ، كما فقدنا ٢١ طائرة مقاتلة منها ١٥ فى اليوم الأول . وأصبحت قواتنا الجوية ، نتيجة لقتالها البارز والناجح خلال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر ، علامة مميزة فى هذه الحرب بعدد الطلعات الجوية التى نفذتها وعدد المعارك الجوية التى خاضتها .

معركة القنطرة شرق :

وكان القتال يدور خلال هذا اليوم - ٧ أكتوبر - على طول الجبهة من الساحل الشمالى لسيناء (شرق بورسعيد) إلى الساحل الشرقى لخليج السويس .

ففى الساحل الشمالى وجهت قواتنا البحرية قصفها للحصن الإسرائيلى الموجود شرق بور فؤاد ، وهو الحصن الوحيد الذى لم يسقط .

وفى القطاع الشمالى من جبهة القناة ، كانت قوات الجيش الثانى تعمل بثبات لتعميق رءوس الكبارى للفرق . وكنا فى القيادة العامة نتابع باهتمام شديد ما يدور فى قطاع القنطرة شرق ، وهى المدينة الرئيسية الثانية فى سيناء بعد العريش . وإذا كانت هذه المدينة لها أهمية سياسية ، إلا أن لها أيضاً أهمية استراتيجية لفتح الطريق الساحلى (القنطرة - رمانة - العريش) أمام تقدم قواتنا فى اتجاه رمانة . ومن هنا كان إصرار قواتنا على تحريرها ، وكان إصرار القوات الإسرائيلية على التشبث بها .

لقد كانت الحصون التى بناها العدو فى قطاع القنطرة شرق من أقوى حصون خط بارليف وصل عددها إلى سبعة حصون ، كما أن القتال داخل المدينة يحتاج إلى جهد لأن القتال فى المدن يختلف عن القتال فى الصحراء . ولذلك استمر القتال شديداً خلال هذا اليوم ، واستمر ليلة ٧ / ٨ أكتوبر استخدم فيه السلاح الأبيض لتطهير المدينة من الجنود الإسرائيليين . وتمكنت قوات الفرقة ١٨ بقيادة العميد فؤاد عزيز غالى فى نهاية اليوم - ٧ أكتوبر - من حصار المدينة والسيطرة عليها تمهيداً لتحريرها فى اليوم التالى .

وفى القطاع الجنوبى من الجبهة ، تقدمت بعض قوات الجيش الثالث تقدماً محدوداً فى اتجاه الممرات الجبلية ، ووصلت وحداتها إلى المنطقة التى يتواجد فيها مركز قيادة القطاع الجنوبى الإسرائيلى بالقرب من « مضيق متلا » وهاجمته بالنيران .

وفى نهاية يوم القتال - ٧ أكتوبر - كانت قواتنا المسلحة قد حققت النجاح فى المعارك التى خاضتها لصد هجمات العدو المضادة استكمالاً لما حققته فى اليوم السابق - يوم العبور . وأصبحت رءوس الكبارى للفرق الخمس المشاة بالعمق الكافى وبالقوة التى تكفل لها تحقيق المهام التالية التى تنتظرها . كما قامت طائراتنا بقصف الأهداف المعادية فى عمق سيناء بالقطاعين الشمالى والأوسط ، بعد أن تصدت بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوى لطائرات العدو التى حاولت الاغارة على بعض مطاراتنا . وفى الوقت نفسه قامت قواتنا البحرية بتنفيذ مهامها القتالية ، وتأمين شواطئنا بالبحرين المتوسط والأحمر . واشتملت خسائر العدو على استيلاء قواتنا على عدد من الدبابات والعربات المدرعة بعد أن تركها العدو وفر هاربا ، كما تم استسلام عدد

من ضباط وجنود وحدات العدو المدرعة بدباباتهم وعرباتهم . كما اشتملت خسائرنا على إصابة وتدمير بعض الدبابات والعربات المدرعة بالإضافة لاستشهاد عدد من المقاتلين فى مقابل عدد أكبر من القتلى الإسرائيليين[1] .

وفى الجولان ، بدأت القوات السورية هجومها يوم ٦ أكتوبر بالتنسيق مع هجوم قواتنا فى جبهة القناة كما كان مخططاً . فالضربة الجوية السورية ضد أهدافها تمت فى نفس توقيت الضربة الجوية المصرية . وبدأ الهجوم فى الساعة ١٤,٠٥ بعد تمهيد نيران من المدفعية السورية لمدة ساعة فى نفس توقيت هجوم قواتنا . وخلال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر واصلت القوات السورية هجومها بنجاح . وقامت قوة من الصاعقة السورية محمولة فى طائرات هليوكبتر بعمل فدائى جسور حيث احتلت موقع العدو فوق قمة جبل الشيخ بعد أن أبادت القوة الإسرائيلية ، برغم أن إسرائيل قد اهتمت بهذا الموقع وقامت بتحصينه مع الاستفادة بصلابة طبيعة الجبل نفسه .

صورة الموقف تكتمل أمام إسرائيل :

واكتملت صورة الموقف أمام القيادة العسكرية الإسرائيلية فى الساعة الحادية عشرة مساء يوم ٧ أكتوبر ، اعترف بها رئيس الأركان الإسرائيلى بقوله :

- إن القوات المصرية تسير بناء على خطة محكمة التفاصيل . فقد عززت قواتها ومواقعها فى شرق القناة بأعداد كبيرة من الدبابات والمدرعات والاسلحة الثقيلة ، كما أنها بدأت فى تعميق رءوس الكبارى .
- وتم تنفيذ الهجوم المضاد الإسرائيلى بثلاثة ألوية مدرعة إضافية لقواتنا شرق القناة . وبدأ سلاحنا الجوى بتشكيلات يصل عددها إلى ١٦٠ طائرة فى مهاجمة التجمعات المصرية مع شعاع أول ضوء يوم ٧ أكتوبر . والنتيجة أن الهجوم المضاد انتهى أمره وسقط لإسرائيل تسع طائرات .

---

(١) جاء فى كتاب (عيد الغفران) الذى أصدره سبعة من الصحفيين الإسرائيليين الذين اشتركوا فى القتال كجنود فى وحدات مختلفة بالجبهتين المصرية والسورية ان عدد الخسائر وصل إلى ٥٠٠ قتيل ، وألفى جريح ، ووقوع عشرات من الأسرى خلال يوم ٦ أكتوبر . علماً بأن خسائرهم أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وصلت إلى ١٨٠ فقط ، وفى حرب الأيام الستة وصل إلى ٨٥٠ قتيلاً .

- ما لم نتوقعه هو أن الطائرات المصرية اشتبكت مع طائراتنا فى قتال عنيف وضار ، وأجبرتها على أن تدخل مرة أخرى مضطرة مجال الصواريخ أرض / جو .

- وفى نفس الوقت استطاعت مجموعات من الدبابات المصرية الوصول إلى مركز القيادة فى ممر متلا ، وحاصرته وهاجمته من جميع الاتجاهات . هذا فى الوقت الذى كانت فيه معارك مدينة القنطرة شرق تدور بشراسة ومواجهة عنيفة .

إن المصريين استولوا على حصون القنطرة شرق السبعة الحصينة ... إنهم فى القتال لا يرخمون ... إن المصريين يفجرون أنفسهم أمام وفوق المدرعات الإسرائيلية ... إنهم يقبلون تراب سيناء ... كل ذلك يعنى قبل كل شيء أن تقديراتنا السابقة حول الجندى المصرى وقدرته القتالية والفرق النوعى الذى يفصل بينه وبين الجندى الإسرائيلى كانت خاطئة .

- وتحولت الهضبة السورية إلى كتل مشتعلة ، فالقتال يسير فيها أعنف من أى تصور . وكانت أنباء سقوط المواقع الإسرائيلية ، وتقدم القوات السورية فى اتجاه وادى الأردن أمراً مقلقاً للغاية .

- وكانت إسرائيل من الداخل تعيش فى حالة ذعر وقلق بعد تسرب أنباء القتال عبر المحطات الأجنبية . أما الشعب فى الشوارع فقد بدأ يشعر بالكارثة ، فسيارات الأسعاف تعود محملة بالجرحى من الجبهتين . وكان واضحاً للجميع أن حجم الخسائر البشرية الإسرائيلية كبير نسبياً إذا قورن بساعات القتال .

وينهى الجنرال اليعازار رئيس الأركان اعترافه بالنص الآتى :

" أقول بمرارة إننا من بعد ظهر هذا اليوم - ٧ أكتوبر - كنا فقدنا سيطرتنا على توجيه قواتنا فى المنطقة الشرقية كلها . فقد كان تقدم القوات العربية على الجبهتين الشمالية (الجولان) والجنوبية (سيناء) يسير بمعدل واحد . لقد كنا أمام خطة محكمة تنفذ على جبهتين عريضتين ، وكأنها تنفذ على جبهة واحدة .

أما ديان ، فلم يكن عصبيا أو منفعلاً كعادته ، بل كان منهاراً محطماً . لا يدرى ماذا يفعل أو بأى لهجة يتحدث ، وكنا نحن كذلك .

لا يمكن لأحد مهما أوتى من أسلوب فى الكتابة ، أن يصور الهزيمة بقدر ما يراها

على وجه قائد مهزوم فى تقديراته وخططه وتاريخه ..

هكذا كان ديان " .

بدء الاتصالات بين مصر وأمريكا :

فى الوقت الذى كانت تحقق فيه قواتنا النجاح فى الجبهتين المصرية والسورية ، حدث أول اتصال سياسى مباشر بين مصر وأمريكا أثناء الحرب يوم ٧ أكتوبر – اليوم الثانى للقتال – ويقول السيد محمد حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى فى مصر عن هذا الاتصال ما يلى[١] :

إعتباراً من يوم ٧ أكتوبر قرر الرئيس فتح طريق الاتصال المباشر بين القاهرة وواشنطن ، استجابة للايقاع السريع للعمل الدبلوماسى والسياسى فى المرحلة القادمة ، على أن يبلغ الدكتور الزيات (وزير الخارجية وكان فى نيويورك) بمضمون ما يتقرر .

وفى أول رسالة إلى الدكتور كسنجر أشرت إلى الاتصالات التى جرت بينه وبين الدكتور الزيات ، وسجلت ملاحظاتنا التالية بصفة خاصة :

١ – إن الاستفزازات الإسرائيلية لم تتوقف ، وأن الاشتباكات الحالية لا تفاجىء المتتبع لأعمال الاستثارة الإسرائيلية والتى سبق أن وجهنا إليها النظر .

٢ – إن مصر كان عليها اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة أى عمل إسرائيلى بحزم ، وذلك منذ الاشتباكات مع سوريا فى ١٣ سبتمبر .

٣ – إن الاشتباكات التى حدثت تؤكد رفض مصر الإذعان للشروط التى تريد إسرائيل إملاءها عن طريق استخدام الأرض المحتلة كرهينة .

٤ – إن وضعاً جديداً قد نشأ فى المنطقة ومن ثم نوضح موقفنا :

● هدف مصر ثابت فى التوصل إلى سلام فى الشرق الأوسط ، وليس إلى تسوية جزئية .

● لا تعتزم مصر تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة .

---

(١) محمد حافظ إسماعيل : أمن مصر القومى (ص ٣١٧ – ٣١٩) .

٥ - إن موقف مصر يتلخص فيما يلي :

- على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضي المحتلة .
- عندئذ سنكون على استعداد للاشتراك في مؤتمر سلام في الأمم المتحدة تحت الاشراف المناسب .
- تأمين حرية الملاحة في مضايق تيران ، وتقبل مصر وجوداً دولياً كضمان لهذا لفترة محددة .

٦ - نرجو ألا يساء فهمنا - كما حدث مع روجرز عام ١٩٧١ - فيعتبر أن هذا الموقف هو بداية تنازلات .

كانت رسالتي في ٧ أكتوبر ، تمثل حلقة جديدة في سلسلة الاتصالات التي دارت منذ عام تقريباً بين واشنطن والقاهرة ، والتي كانت قد توقفت تقريباً منذ يوليو الماضي حتى بادر الدكتور كسنجر منذ صباح ٦ أكتوبر باستئنافها ، عندما قرر الاتصال مباشرة بوزير خارجيتنا الدكتور الزيات في نيويورك ...

ومن الناحية الموضوعية ، لم تكن رسالتنا في ٧ أكتوبر تعرض أمراً جديداً ، إذا استثنينا الالتزام حول « عدم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة » . فلقد أردنا تحديد المبادىء التي تحكم موقفنا من التسوية السياسية للنزاع العربي - الإسرائيلي .. بإنهاء احتلال الأراضي وتأمين حقوق الشعب الفلسطيني .

ويستطرد السيد حافظ إسماعيل في شرحه وتفسيره لهذه الرسالة قائلاً :

وبذلك كان مضمون برقيتنا يمثل نقطة انطلاق نتجاوز به العمل على وقف إطلاق النار ، فقد كنا نأمل من خلال المعركة التوصل إلى صياغة سياسية مرضية ، كنا قد عجزنا طيلة ستة أعوام عن تحقيقها . ومع ذلك فقد إلتزمنا بإدارة عملياتنا العسكرية داخل إطار الأرض المحتلة لتحريرها ... وعدم تجاوزها وتحقيقاً لذلك فقد طرحنا حدود عملنا على مستويين :

- **الأول** : فيما يتصل بالقتال الدائر على الجبهة مع إسرائيل ... حيث التزمنا « بعدم تعميق » الاشتبكات ، فلا يقحم المدنيون في المراكز الآهلة بالسكان في عمق البلاد أو الأهداف الاقتصادية ... وكان هدفنا هو تأمين مراكزنا السكانية وما أشد كثافتها ... ومراكزنا الاقتصادية وما أعظم حيويتها وتعرضها .

● **الثانى** : فيما يتصل بدائرة الصدام داخل منطقة الشرق الأوسط ... فقد التزمنا بعدم توسيع جبهة المواجهة ، وذلك بتجنب إقحام المصالح الغربية فى منطقتنا تجنبا للإضرار باقتصاد شعوب اليابان وأوربا الغربية . وكان الهدف من ذلك هو ضمان تأييد العالم الغربى والرأى العام العالمى لقضيتنا .

□ □ □

وعلى الجانب الآخر ، ماذا كان رد فعل هذه الرسالة لدى أمريكا ، وماذا كان تفسير الدكتور كسنجر لها ؟

يقول كسنجر فى مذكراته[1] تحت عنوان « بدء الاتصال بالسادات » مايلى :

« بعد مضى فترة وجيزة ، حصلنا على أول اتصال مباشر مع القاهرة (وبالمناسبة أذكر أنى لم أتصل بسوريا مباشرة طوال الحرب) . لقد كانت اللهجة ودية ، وكانت الفحوى دليل عقل لا سياسة . لقد أبلغنى حافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومى ، بمذكرة وصلتنى عن طريق الأجهزة السرِّية ، أبلغنى فيها الشروط التى تضعها مصر فى سبيل إيقاف الأعمال العدوانية . إنها مماثلة لتلك الشروط التى وضعت فى شهر مايو (آيار) الماضى ، ولم يسمح لها الظرف الحاضر بأن تصبح واقعية :

« على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضى التى احتلتها . وبعد هذا الانسحاب ، يمكن إجراء مباحثات فى سبيل السلام ، وبحث القضايا المعلقة : مثل حرية مرور السفن فى مضيق تيران ، وضمان تواجد قوات دولية مؤقتة فى شرم الشيخ . وبالطبع فإن المذكرة ترفض وبوضوح كل إتفاقية جزئية أو مؤقتة » .

« إن هذه الشروط لمن يتأمل فيها ، لا تمثل سوى نقطة انطلاق . والسادات يعرف من خلال ما جرى بيننا فى السابق من اتصالات ومحادثات ، أن لديه أفكاراً غير قابلة التحقيق . فلم يخالجنى شك ، أنه ليس الآن بصدد اتفاقية ، بل إنه ساعٍ إلى إجراء محادثات . والاتصال بنا فى حد ذاته ، فى الظروف الحالية ، يشكل له خطراً . وهو لا يستطيع أن يسمح للخطر بالتفاقم ، من حيث تخليه عن سوريا ، أو الابتعاد عن الاتحاد السوفيتى الذى لا غنى له عن مساندته لاكمال مسيرة الحرب .

---

(١) كسنجر – مذكرات كسنجر فى البيت الأبيض – ترجمة خليل فريجات (الجزء الرابع) ص ٣١٦ وما بعدها .

ويستطرد كسنجر فى شرحه وتفسيره للبرقية المصرية ، فيقول فى مذكراته :

« إن الجدير بالاهتمام هو وصول المذكرة لا مضمونها . كان السادات يدعونا للاسهام فى مشروع السلام ، إن لم نقل أنه يكلفنا بذلك ، فى حين كنا نطالب الأمم المتحدة بأن يتخلى عن تلك الأراضى التى احتلتها جيوشه .

ولا يفوتنى أن أذكر أن المذكرة تتضمن مؤشراً يوضح أن السادات متفهم جيداً لتلك الحدود التى يتمكن من الوصول إليها « ليس فى نيتنا التعمق فى أراضى الغير أو توسيع جبهة القتال » . إن هذه الجملة الواردة فى المذكرة ، لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة فى متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل ، بعد الأراضى التى كسبتها . أو تحميل أمريكا كامل مسئولية ما يحدث كما فعل عبد الناصر عام ١٩٦٧ ...

إن مذكرة إسماعيل أعطت الدليل على إمكانية إجراء محادثات مع بلاد هاجمت حليفنا ، وربما لن يكتب لها النصر بسبب الأسلحة الأمريكية . ولم يمض يوم طوال مدة الحرب لم نتلق فيه مذكرة من القاهرة أو دون إرسال مذكرة إليها » .

□ □ □

ومن المهم مناقشة ما جاء فى برقية السيد حافظ إسماعيل ومفهوم كسنجر لها ، لأن تفسير السيد حافظ إسماعيل يختلف عن تفسير كسنجر .

فقد أفصحت مصر عن نواياها فى العمل العسكرى « لا تعتزم تعميق الاشتباكات » ، وهذا فيه إفشاء لنوايانا للعدو الإسرائيلى عن طريق حليفه المضمون أمريكا . ومن الطبيعى أن تتصرف أمريكا سياسيا وتتصرف إسرائيل عسكريا على أساس أن قواتنا لن تقوم « بتعميق » وتطوير الهجوم فى سيناء اكتفاءً بالخطوط التى وصلت إليها فى اليوم الثانى للقتال ٧ أكتوبر .

وقد كانت مصر ترى أن هذا الإلتزام الذى قدمناه لأمريكا يهدف إلى تجنب إقحام المدنيين والأهداف الاقتصادية فى الحرب وذلك لتأمين مراكزنا السكانية ومراكزنا الاقتصادية . ولكن إسرائيل لم تلتزم بذلك حيث بدأت فى القصف الجوى لمدينة بورسعيد إعتباراً من اليوم التالى للبرقية — يوم ٨ أكتوبر — والأيام التالية . كما أنها هاجمت المراكز السكانية والأهداف الاقتصادية فى سوريا إعتباراً من يوم ٩ أكتوبر بما فى ذلك قصف العاصمة دمشق بالطائرات .

وقد إلتزمت مصر فى برقيتها « بعدم توسيع جبهة المواجهة » بهدف تجنب إقحام المصالح الغربية فى منطقتنا تفادياً للاضرار باقتصاد شعوب اليابان وأوربا الغربية . ولم يكن هناك ما يدعو لأن نعطى أمريكا الاطمئنان على مصالحها فى وقت كانت تقف فيه ضد مصر وسوريا بصراحة تامة وتقف بجانب إسرائيل فى كل المجالات .

ويقول كسنجر[1] « عندما أقمنا جسراً جوياً وأرسلنا السلاح المطلوب لإسرائيل ، وأصبحت الحرب تميل لغير صالح مصر ، فعلى الرغم من كل هذا لم نشعر بوجود ضغينة فى مصر ضد أمريكا . وكان هذا حسن تصرف منه (من السادات) حتى لا يستميلنا إلى جانب إسرائيل فى الأدوار الدبلوماسية المقبلة ... ويمكن إعتبار هذا تفهماً رائعاً للأمور من وريث عبد الناصر ، بعد مرور عشرين عاماً من العداوة » .

ولا شك أن العمل السياسى للدولة لا بد أن يتمشى مع العمل العسكرى الذى تقوم به قواتها المسلحة . وإنى أرى أن العمل السياسى لم يكن فى صالح العمل العسكرى ، عندما نصت البرقية المصرية « لا تعتزم مصر تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة » .

(١) كسنجر : مذكرات كسنجر فى البيت الأبيض – ترجمة عربية (حليل فريحات) – الجزء الرابع – ص ٣١٧ .